

اماديت المعراج

قد صحت الأخبار فيما لا يحصى من كتب الاسلام أن رسول الله عليه الصلاة والسلام عرج به إحدى الليالي ، قبل أن يهاجر إلى المدينة ، إلى السموات العلى ، حتى دنا من رب العزة وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه من الحكم والأحكام ما أوحى ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، ورأى الأنبياء في السموات على تفصيل فيه ، ورأى آيات عظيمة كبرى لا يعلمها الا الله . كل ذلك في ليلة واحدة ، ثم رجع به إلى مكة المكرمة في الليلة فأصبح يحدث الناس ببعض ذلك فصاروا ما بين مصدق ومكذب

روى ذلك أعلم علماء الاسلام ، في أصح كتب الاسلام بعد القرآن . رواه البخارى ومسلم وعامة المحدثين ، وشاع بين الخاصة والعامة شيوعا يكفي بمضه أن يكون المعراج من المتواترات التي لا تقبل النزاع . وقد جهر القرآن بذلك أيضا ، فقال في سورة النجم (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)

فالمعراج ثابت في القرآن ، وفي السنة المتواترة ، فهو من يقينيات الدين . هذا إجمال أمر المعراج بلا تفصيل لكل ما حصل في تلك الليلة العظيمة

وقد استشكل فريق من الماديين ، ومن يأخذون أخذهم من المسامين أمر المعراج فأنكروه ، ووجهوا إليه ما يأتي من الشبهات :

قالوا أولاً : إن الأحاديث تدل أن الاسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة . وقد ذكر القرآن الاسراء في سورة الاسراء منوهاً بشأنه قال (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) ولم يذكر المعراج والمعراج بلا ريب أعظم من الاسراء ، وأرفع . فلماذا ذكر الاسراء دون المعراج ، وهما في ليلة واحدة وفي طريق واحد ، وأحدهما بعد الثاني ؟ ليس لهذا السؤال جواب مرض إلا أن يقال : إنه لم يكن معراج ، أو يقال إن الاسراء كان في ليلة والمعراج في ليلة أخرى . وهذا القول خلاف الأحاديث وقالوا ثانياً : إن الأخبار في المعراج فيها اختلاف كثير ، حتى وقع الاختلاف في الأحاديث الصحيحة منها . ففيها اختلاف في منازل الأنبياء في السماء ، واختلاف هل كان يقظة أم مناماً . وهل كان الاسراء والمعراج في ليلة أم في ليلتين . وهل كان بالروح وبالجسد أم بالروح فقط . وبالجمله وقع اختلاف كثير في كثير من أمور المعراج . والاختلاف إذا اشتد يوجب سقوط الروايات وتساقطها .

وقالوا ثالثاً : في أخبار المعراج ما هو محال لا يمكن صحته . ففيها أنه

صلى بالأَنْبياء في بيت المقدس ، وأنه رآهم في السموات ، ورأى موسى يصلي في قبره . فهل يمكن ذلك ؟ أوليس في هذا ما يشهد على أن الشخص الواحد قد توجد له عدة ذوات إلا أن يقال : إن الأنبياء كانوا في تلك الليلة ينقلون من مكان إلى مكان ، فرآهم في الأرض ، ثم عرج بهم إلى السموات فرآهم هناك ، وهكذا يقال في صلاة موسى في قبره وأيضاً كيف ذلك ؟ ! فهل أحياءهم الله في تلك الليلة ؟ أم الأنبياء أحياء لا يموتون . وأنتم لا تقولون بذلك ، وهو خلاف النصوص ؟ ! أوليس قد صح عن رسول الله أنه قال « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » إلى آخره ؟ ! فصلاتهم في بيت المقدس وصلاة موسى في قبره مخالفة هذا الحديث . فأيهما يقبل وأيهما الصحيح !!

وأيضاً قد رأى النيل والفرات عند سدرة المنتهى ، وهذان نهرا في الأرض . فكيف يمكن هذا ؟ !

وأيضاً إنه قد رأى نسيمات الكافرين والمؤمنين في السماء عن عيني آدم وشماله . وقد قال الله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين) فهل تقبل الروايات ، وقد خالفت القرآن الكريم ؟ ! ثم هل الأرواح ترى ؟ ! وهل هي من مدركات البصر ؟ ! وأيضاً في الروايات أن الملائكة قد شقوا صدره عليه السلام قبل أن يعرجوا به ، وأخرجوا منه نصيب الشيطان ، وملئوه حكمة وإيماناً . وفي هذا كله غرابة وبعده عن العادة

هذه الأمور كلها تدل على اختلاق الروايات في المعراج . فان من الدلائل على كذب الرواية أن تحمل ما لا يعقل وقالوا رابعاً : إن الهواء يوجد فوق الأرض عدة أميال فقط ، وبعد ذلك يفقد . والهواء ضروري للحياة . فلا يعيش إنسان ولا حيوان بدون ، وبدون أن يعلأ رثتيه منه . فلو كان رسول الله ﷺ عرج به إلى ما فوق الهواء لما أمكن أن يبقى حياً .

وقالوا خامساً : إن أخبار المعراج تدل على أنه فتحت له أبواب السماء . ونحن نعرف أنه ليس للسموات أبواب تفتح بل السموات لا تقبل الخرق والالتئام

وقالوا سادساً : الروايات تدل أيضاً على أن السموات سبع ، وأنها غير النجوم المعروفة لأهل التنجيم والفلك . وهذا كله غير صحيح وقالوا سابعاً : الأخبار تقول إن ذلك المعراج وقع في ليلة واحدة . وهل هذا استطاع . وكـم بين السماء والأرض من المسافات . هذا ما لا يكاد يصدق العقل

هذه شبهاتهم على المعراج . وغالب هذه الشبهات هي في الحقيقة شبهات من ينكر القادر المختار . فهي شبهات على جميع الأديان ، وعلى المعجزات عامة . وهي شبهات مادية إلحادية صرفة

أما قولهم : لماذا لم تذكر سورة الاسراء المعراج مع الاسراء ، وهما في ليلة واحدة . فنقول : إن العلماء قد اختلفوا هل كان المعراج والاسراء في ليلة أم ليلتين . قال بكل طائفة . واحتجت كل طائفة بروايات . فقد

جاء في الروايات الصحيحة ما قد يدل على أنهما كانا في ليلة واحدة .
وجاء فيها ما قد يدل على أنهما كانا في ليلتين . وعلى الرأي الأخير يستقطب
هذا السؤال جملة . وعلى الأول نقول : إن الله تعالى حكمة بالغة في
ذكر الأسراء في السورة دون المعراج . وذلك أن الله علم أن المشركين
والمخالفين سوف ينكرون ذلك كله إذا ما حدثهم به رسول الله عليه
السلام ، وسوف يهزؤون برسول الله من أجله . وقد حدث هذا .
أما الأسراء فانه يقدر ان يصدق قوله إذا كذبوه بأن يذكر لهم بيت
المقدس ، وصفة المسجد الأقصى ، فينتصر عليهم ، وتكون له الحجة .
وهذا قد كان . وأما المعراج فبماذا يكذبهم إذا كذبوه ، وبماذا يصدق
قوله ؟ فلو نعت لهم السماء وما رأى فيها لما كان في ذلك مقتنع لهم ،
ولا حجة عليهم لأنهم لا يعرفون ما هنالك . فكان من الحكمة البالغة
أن يذكر في سورة الأسراء التي تتلى على المشركين المعاندين الأسراء
دون المعراج ، حكمة منه بالغة

على أن الأسراء الى بيت المقدس إنما كان مقدمة للمعراج ، وطريقاً
إليه ، على القول بأنهما كانا في ليلة واحدة . وقد يكون حينئذ من الجائز
المناسب المعهود أن يذكر الأسراء دون المعراج ، لأنه إذا ذكر الأسراء
علم أنه يعنى به ما بعده وهو المعراج . ومن أجل ذلك يذكر كثير من
المؤلفين المعراج في باب الأسراء . والقرآن يقول (سبحان الذي أسرى
بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله
لنريه من آياتنا) وهذه الآيات فيما يبدو لنا ، ولمن فكر جيداً ، هي

الآيات التي رآها في المعراج . فأشار إلى المعراج بما وقع فيه من الآيات والمعجائب . وليس بلازم ذكره نصاً . ثم إن المعراج قد ذكر في سورة النجم كما تقدم . فذكر الأسراء في سورة ، وذكر المعراج في سورة أخرى ، وما في هذا شيء من الغرابة .

وأما قولهم : إن الأحاديث متخالفة . فنقول : إن الاختلاف لم يقع في أصل المعراج . فإن الروايات كلها مجتمعة على وقوع المعراج ، وإنما كان بعض الاختلاف في بعض صفاته وهيئاته ، كما ذكرنا . وقد قدمنا في أحاديث انشقاق القمر وأحاديث الدجال أن كل أمر عظيم ذي بال لا بد أن يقع في صفته وهيئته وشكله اختلاف ، وأنه على قدر عظمه يكون الاختلاف في ذلك . ولكن ذلك الاختلاف لا يقدح في وجود ذلك الأمر الذي اختلف في صفاته يقيناً . وقد مر هنا لك أن الاختلاف قد وقع في صفات الرسول ، والملائكة ، والجنة ، والنار ، وفي الحساب والعقاب ، وفي أعمال الرسول عليه السلام ، وفي سائر عظماء التاريخ ، ولم يدل هذا على أن هؤلاء لم يوجدوا عند أحد من خلق الله . فكذلك أحاديث المعراج لا يدل الاختلاف في بعض صفات المعراج على أن المعراج لم يقع . وهذا ضروري .

ونحن هنا لا نتعرض للتوفيق بين الروايات نفسها . فإن ذلك ليس مما قصدنا له في هذا الباب . على أن من حاول أن يجمع بين الروايات كلها في المسائل الكبيرة كالمعراج ، والدجال ، وأحوال الساعة فقد حاول محالاً في رأينا . إذ لا بد أن يكثر الدخيل في ذلك

لكثرة التحديث به ، وكثرة روايته ولاشتهاره والعناية به .
وأما قولهم : إنه وقع في أخبار المعراج أشياء لا يمكن أن تكون
صحيحة ، فلا يمكن أن تكون الأخبار إذاً صحيحة . فنقول : هذه
الأشياء المذكورة إما أن تكون محالة الحصول ، أو تكون جائزة
الحصول . فإن كانت محالة الحصول ، كانت أخبارها هي الكذب فقط
دون أخبار المعراج . ولا مانع أن يقع في الحادثة الواحدة صدق
وكذب ، ومحال وجائز ، فيكذب الكذب والمحال ، ويصدق الصدق
والجائز . وذلك كالأخبار عن حاتم الطائي بالكرم ، وعن عنترة بالشجاعة
وعن قيس بن الملوح بالعشق . فإن الأخبار عنهم بما اشتهروا به جمعت
صدقا وكذبا ، ومحالا وجائزا . ولكن كذبها لا يقضى بأن يكون
صدقها كذبا ، وصدقها لا يقضى بأن يكون كذبها صدقا . فالأخبار عن
حاتم بالجود متواترة ، ولكن دخلها مبالغات لا يقبلها العقل ، ولكن
يصدق مطلق الجود له . وكذلك الأخبار عن عنترة بن شداد بأنه
شجاع متواترة ، ولكن دخلها مبالغات لا يصدقها العقل ، ولكن
يصدق مطلق الشجاعة له . وكذلك الأخبار عن قيس بن الملوح
متواترة بأنه كان عاشقا ، ولكن دخلها مبالغات لا يصدقها العقل ،
ولكن يصدق مطلق العشق له . وكذلك حصل في أخبار جميع الرجال
المشهورين ، وفي الأحداث الكبيرة . فوقع فيها مبالغات لا تصدق .
وقد وقع ذلك في معجزات الأنبياء وكرامات أتباعهم ، وفي أخبار
الجنة والنار وما بعد الموت ، وهذا لا يقدر في الحق منه . ومثله أخبار

المعراج إذا افترضنا أنه وقع فيها مالا يكون وجب رده هو دون أصل المعراج . وهذا واضح . هذا على الفرض الأول . وأما إن افترضنا أن الأشياء المذكورة غير محال حصولها بطلت الشبهة رأساً . فهذه الشبهة لا تقدر في المعراج على جميع الافتراضات

على أن هذه الأمور المنكرة عندهم قد وقعت في أخبار الاسراء . فهل يكذبون الاسراء لذلك ، والاسراء مذكور في القرآن ؟! على أننا نجابون عن الأمور المذكورة واحداً فواحداً ، لأن إشكالها يقدر في المعراج ، بل لأنها هي في نفسها مشكلة عند هؤلاء . وكتابتنا هذا للمشكلات .

أما رؤيته ﷺ الأنبياء في بيت المقدس ، ثم رؤيته لهم بعد ذلك في السماء ، ففي هذا تفاسير كلها صحيحة :

أولها — أن يكون الذي رأى هي الأرواح ، رآها في بيت المقدس ، ثم عرج بها إلى السموات فرآها هنالك . وقد قدمنا الكلام على الأرواح في أحاديث عذاب القبر

ثانيها — أن يكون الله خلق له عليه السلام أشخاصهم ، فرآهم في السماء وفي الأرض لحكمة بالغة .

ثالثها — أن يكونوا مثلوا له تمثيلاً . فرآهم وخاطبهم ، وخاطبوه هذه تفاسير ثلاثة ، وكلها لها نظائر في فعل الله وفي علوم هذا العصر أيضاً . وليس المعنى في هذا أن تكون الذات الواحدة في مكانين في وقت واحد . لا

وقولهم : كيف يصلون والميت ينقطع عمله كما قال عليه السلام :
« إذا مات ابن آدم انقطع عمله » الحديث . يقال عليه : إن سنة الله
المطرودة الغالبة أن الانسان إذا مات انقطع عمله كما في الحديث المذكور
ولكن الله قد يخلق خوارق : إما معجزات لرسله ، أو كرامات
لأوليائه . كما فعل ذلك للأنبياء ولالأولياء في مواضع معلومة . ولكن
ذلك لا يتخذ سنة عامة وأمرأً مطرداً شأن المعجزات والكرامات
والخوارق . فالحديث الذي نخبرنا بانقطاع الأعمال يخبرنا عن السنة
العامة في الأموات . وصلاة الأنبياء ليلة الاسراء والمعراج هي من
قسم الخوارق . والخوارق يؤمن بها المؤمنون والكافرون . إلا أن
الكافرون يسمون ذلك فلتات الطبيعة ، كما يجعلون ما في الكون من
حكمة ونظام من ناموس الطبيعة . وقد كانت ليلة الاسراء والمعراج كلها
خوارق وعجائب . وليس ما حصل فيها طبق السنة العامة المطردة ، ولا
ريب في هذا . وقد صرح في الأحاديث المتكاثرة أن بعض الأشجار
والاشجار والجماد والحيوان كان يخاطب رسول الله ﷺ ، وكان يعقل
عنه . وليس معنى هذا أن هذا سنة لهذه الأشياء ، وإنما ذلك كله
خوارق للناموس العام الشائع . فليراع هذا هؤلاء الذين يجعلون صلاة
الأنبياء في ليلة المعراج دليلاً على أن الأنبياء أحياء حياة مادية كحياتهم
قبل أن يموتوا . بل قد يقولون : إن حياة الأنبياء ، وتصرفهم في موتهم
أكمل من ذلك في حال الحياة . وهذا غلط شائع . وإلا فما معنى الموت

حينئذ ؟ ! إنه لا موت على رأيهم . وهذا خلاف الدين والضرورة والاجماع .

وأما إنه رأى النيل والفرات في السماء وهما نهران في الأرض ، فقد سلف الكلام على ذلك في بحث خاص

وأما إنه رأى نسمات الكفار في السماء والله يقول : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة) فيقال : إن الآية في جانب والحديث في جانب آخر ، فالآية تعني أن الكفار لا يدخلون الجنة وقوله بعد ذلك (ولا يدخلون الجنة) كالتفسير لذلك . والحديث دل على أن أرواح الكفار قد يعرج بها إلى السماء حيناً لحكمة ، كما فعل في المعراج على أنه يجوز أنه مثلت له أرواحهم تمثيلاً ، فرأى مثلها لا أعيانها

وأيضاً الآية تعني أن الكفار في الشأن الغالب لا يعرجون إلى السماء شأن المؤمنين . فان المؤمنين يعرج بهم حين الموت إلى السماء وأما الكفار فيذهب بأرواحهم إذا ما ماتوا في أسفل سافلين . هذا هو ما تعنيه الآية ، ولا تنفي أن يذهب بأرواحهم يوماً لحكمة إلى السماء . على أن مثل هذه العبارة قد تعبر عن الرحمة والقبول ، كما يعبر عكسها عن عكس هذا المعنى . فيقال مثلاً : هذا دعاء تفتح له أبواب السماء ، وهذا عمل تغلق دونه أبواب السماء . ويراد بالأول أنه دعاء مرضى مقبول ، وبالثاني أنه عمل غير صالح ، فهو مردود . فكذلك قول الله (لا تفتح لهم أبواب السماء) يريد أنهم بعداء مغضوب عليهم

وقد يقول العربي صاحب اللسان « لا تفتح لفلان أبواب الملوك ». ولا يعنى بقوله هذا أنه لا يدخل على الملوك أبداً ، وإنما يعنى أنه ليس بصاحب جاه ولا مقام عند الملوك ، ولا يمن تعظمهم الملوك ، كما يدل عكس العبارة على عكس المعنى . ثم إن الآية تريد أنهم بأجسامهم لا يدخلون فى ملكوت السماء ، وفى حديث المعراج رأى أرواحهم فقط .

وأما قولهم : وهل الأرواح ترى . فيقال فى الأرواح مذهبان : مذهب يقول إنها جواهر ، ومذهب يقول إنها أعراض . فعلى القول الأول ، وهو القول الصحيح ، لا ريب أن الجواهر ترى ، وأنها من مدركات الأبصار . وعلى المذهب الثانى يقال : لا ريب أن الأعراض والمعانى ترى إذا مثلت أجساماً . وقد كانت الملائكة يتمثلون ، وكذلك الجن . ومستحضرو الأرواح الآن من الفرنج وغيرهم يدعون أنهم يرون الأرواح ، وأنها تخرج لهم بصور أناس محسوسين فيحسسونها . وهذا يوافق آراء طوائف من علماء الاسلام سلفوا . وعلى كل حال ليس هذا خارجاً عن متناول القدرة الالهية .

وأما قولهم : إن الملائكة شقوا صدره عليه السلام . فنقول : هذا حق لا شىء فيه . والجراحون الآن من الاطباء يعملون عمليات فى الجراحة هى أعظم من هذا .

وأما قولهم : إن الهواء يفقد بعد أميال فوق الأرض ، فلا يمكن أن يعيش أحد فوق منقطع الهواء . فنقول : نحن لا نريد أن نجادل

هؤلاء كما يجادلهم فريق من المؤمنين بتلك الطريقة التي لا نرضاها ، ولا يرضاها المنطق ، وهي أن نجتهد بأن نقيم لهم الدلائل على أن ذلك الأمر جار على ناموس الطبيعة المطردة ، وأنه مألوف في الخلق معروف ، وليس غريباً في بابه . فاننا إذا ما فعلنا ذلك أخرجنا ذلك الأمر عن أن يكون معجزاً ، وأن يكون من خصائص النبوة . وهذا صنع من لا يقر بالاله القادر الفعال ، وصنع من ينكر الرسالة والمعجزات والخوارق . وهذا هو أصل الدين وعماده .

وإنما الطريقة التي نرضاها ، ويرضاها المنطق في إثبات هذه الحقائق أن نقول لمن يخاطبنا في ذلك : إما أن تكون مؤمناً بالله وبالرسالة والرسول ، أو تكون منكراً ذلك ، غير معترف بشيء منه . فإن كنت الأول لم يكن علينا إلا أن نبين لك أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة ، وهذا الأمر كاف بالاثبات لأن الأمر جائز ، وإنما يتوقف إثباته على ثبوت سنده . وإن كنت الآخر قلنا لك : أنت إلى إقامة الدلائل على الاله والرسول أحوج منك إلى إثبات المعراج ونحوه من جزئيات الدين . هكذا يكون أسلوب الجدل والرد على المنكر . وليس من الأسلوب الصحيح ، والطريقة المرضية في البحث أن نجيء من ينكر الله ، وينكر أنبياءه وكتبه ، ونتعب أنفسنا في سبيل أن تقنعهم بأن المعراج ونحوه ليس خارجاً عن ناموس الطبيعة ، ولا مما يختص به صاحب الرسالة ، ولا مما يدل على العناية والاصطفاء . فاننا في مثل هذا لا نصل إلى النتيجة التي نحاول

الوصول إليها ، وهى أن تثبت أن محمداً رسول الله ، بل نحن نسمى في صد الناس عن الإيمان بذلك ، لأننا إذا أقنعنا ذلك المخالف بأن المعراج ليس مما يخص رسول الله بل يكون ذلك له ولغيره على حسب نواميس في الطبيعة نزعنا الاعجاز من ذلك . وهل يكون الرسول رسولا إلا بالمعجزات ؟

ومن العبث واللعب في البحث أن نذهب لنقيم الدلائل على المعراج لإنسان يجهل قدرة الله ، أو يجهل الله ذاته ، وينكر المعجزات والآيات وجميع الخوارق ، ولا تبدو باثبات هذه الأمور قبل كل شيء ، بل يلزم أن نبدأ باقامة الدلائل على الله وعلى قدرته ، وأنه يفعل ما يشاء . ولكن أساليب البحث في هذا العصر عقيمة غير منتجة . والناس متقدمون في عصرنا في الحسيات والتجريبيات ، متأخرون في العقليات والنظريات . وليس بين الأمرين تلازم . فان الأطفال والصناع يصدقون الأمور الراجعة إلى التجارب ، ولكنهم يجهلون الأمور الراجعة إلى العقل والنظر . بل الأمور التجريبية قد يعرفها حيوان الأعجم ويتقنها ، ولكن لا يعرف شيئاً من العقليات . وأنت إذا ما تدبرت هذه المناقشات والمساجلات التي تتردد في الجرائد والمجلات والكتب الحديثة رأيت مارأينا في أهل هذا العصر من تأخر الأساليب المنطقية الجدلية .

هذه هي الطريقة التي نرضاها ويرضاها المنطق . وإلا لو أردنا الطريقة التي لا نرضاها ولا يرضاها المنطق لقلنا هؤلاء المخالفين

يا سبحان الله ! هؤلاء الفرنج يحاولون الطلوع إلى القمر والمريخ ،
ويأملون أن يكون ذلك يوماً ، ويصدقهم هؤلاء في هذا الأمل ، ولا
يعدونه محالاً على قدرتهم . فكيف لا يسلّمون مثله لقدرة الله جلّت
قدرته ؟ ! أليس هذا هو النقص في التفكير الذي ليس بعده نقص ؟ !
أوليس الذي خلق الهواء وخلق الإنسان ، وجعله محتاجاً إلى الهواء
والنفس قادراً أن يجعل عباده مستغنيين عن الهواء عائشين بدونه ؟ !
أوليس الذي جعل الأجنة في بطون الحاملات يعيشون بدون هواء
ولا نفس ، والذي جعل الأسماك تعيش في بطون البحار ولا تحتاج
إلى ما يحتاج إليه حيوان البر من الهواء والتنفس قادراً أن يجعل من
يشاء من عباده غنياً عن ذلك ؟ ! أوليس الهواء وما فوق الهواء
خاضعاً لله تعالى ، والله قادر أن ينقله من مكان إلى مكان حسب ما يريد ،
وحسب ما يشاء ؟ ! وهذا الإنسان الضعيف ، يتلاعب الآن بالهواء ،
ويستخره ، فيسوقه من مكان إلى مكان ، ويفرغ منه ما يشاء تفرغاً
من الأماكن ، ويجذبه إلى ما يشاء ، فيجذبه إلى الغواصات
والغواصين في أعماق البحار . فكيف يعجز الله الخالق لكل شيء
عما استطاع الإنسان الضعيف الذي لا يعيش من ضعفه بدون الهواء ؟ !
إن فقراء الهند يروضون أنفسهم مسدة فيأتون بالعجائب ،
ويستطيعون الحياة بدون الهواء والتنفس أزماناً . وقد روت عنهم
الصحف أن الواحد من هؤلاء يلقى في قارورة وضع فيها زيت ، فيقفل
عليه ويحكم القفل ، بحيث لا يجد الهواء إليه سبيلاً ، فيبقى كذلك أسابيع

ثم يخرج حياً . وقد روت إحدى الجرائد المصرية ، وروى الشيخ رشيد رضا في وحيه أن واحداً من هؤلاء سدت جميع المنافذ في جسمه التي يدخل منها الهواء بالقطن ، ثم وضع في صندوق وقفل وأحكم قفله ، ثم دفن في الأرض فظل أربعين يوماً كذلك ، ثم أخرج حياً . عمل هذا وأدخل وأخرج على أعين طائفة من الزعماء والأطباء . فكيف يعجز الله عن مثله ؟ !

وأما قولهم : إن السموات ليست لها أبواب ، فهو قول مجرد ، ودعوى لا سند عليها . ومن أين علموا أن السموات ليست لها أبواب ولا مفاتيح (وما يعلم جنود ربك إلا هو) (ويخلق ما لا تعلمون) . وفي القرآن (لا تفتح لهم أبواب السماء) وما ادعى أحد من علماء الشرق ولا الغرب أنه أحاط بكل شيء خلقه الله علماً . وهؤلاء إذا كانوا يطلبون منا أن نترك نصوص الدين بلا دليل ، فكيف نقبل قولهم هم بلا دليل ؟ ! على أنه لو صح ما قالوا لما كان هذا مخالفاً له . فإن قوله : فتحت أبواب السماء ، وأمثال هذا القول ، ليس صريحاً بآيات ما نقوه . فانه يقال : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك . اللهم افتح لنا أبواب فضلك . ولا يراد بأمثال ذلك الأبواب حقيقة ولا الفتح حقيقة

وأما قولهم : إن السموات لا تقبل الخرق والالتئام ، فهو وهم مجرد ما لهم عليه من سلطان . على أنه لم يكن في أخبار المعراج خرق ولا التئام ، وإنما فيها فتح . وقد قدمنا الكلام في الفتح وأما قولهم : إن الأخبار تدل على أن السموات سبع ، وأنها غير

الافلاك المعروفة لأهل النجوم والفلك . فيقال : عدد السموات مذكور في القرآن الكريم ، وفي الأحاديث المتواترة . ليس ذلك من فرائد حديث المعراج . ولا شك في وجود سموات سبع عند أحد من العلماء والخلاف إنما وقع في تعيين هذه السموات ، لا في وجودها . وأحاديث المعراج لم تعينه . فان كان ما يعتقده الجمهور في السموات السبع باطلا ، لم يكن غيره باطلا . وما قال عالم إنه علم كل شيء في الوجود . والعلماء الآن متفقون على أن الفضاء لا نهاية له ، ولا حد له . وإذا كان ذلك كذلك فالخلوقات في هذا الفضاء الذي لا يحد لا يقدر أحد على إدراكها ورؤيتها كلها . فان التلسكوبات يرى بها إلى حد محدود ، ثم ينتهي الإدراك بها . فمن أنكر السموات السبع على مقتضى الأحاديث لأن التلسكوب لم يرها فقد جهل هذه المقدمات ، وجهل ما عرف ، وأنكر ما اعترف به . أي إننا نقول : إن السموات السبع هي غير النجوم التي رآها الناس اليوم ، والتي عرفها الفلكيون إلى اليوم ، وهي سموات طباق سبع ، بعيدة جداً في الفضاء الذي لا نهاية له ولا حد له باعتراف جميع الفلاسفة الحاضرين والماضين . فالإنسان إلى الآن لم ير هذه السموات ببصره المجرد ، ولا بآلاته المقربة المعظمة ، وليس له أن ينكر ما لم يره لأنه لم يره ، وقد اعترف أن الفضاء لا نهاية له

وأما قولهم : كيف يقطع هذه المسافات في ليلة واحدة . فنقول : هذا راجع إلى قدرة الله ، وإلى الإيمان به . فالذي ينكر المعراج لذلك يكون منكراً لله ومنكراً لقدرة . وهذا أحسن طريقة في إقناعه أن

يقام له البرهان على الآلة القادر الذى يفعل ما يشاء . فاذا عرف الله وقدرته سهل عليه الجواب عن هذا ، وسهل عليه معرفته . أما ان نذهب لنقيم له الدليل على إمكان أن يقطع المسافات الطويلة فى ليلة واحدة ، وهو ينكر الله ، وينكر قدرته فما لا يجوز المنطق الذهاب إليه . وما يكون المعراج والايمان به فى جانب الله والايمان به !! وأما إذا كان هذا المعارض بهذه الحجة مؤمناً بالله ، وبأنه خالق السموات والأرض والوجود كله ، وخالق المسافات والأبعاد والقوى فان يصعب عليه الايمان بأن يمرج برسوله إلى أبعد ما يريد ، ويرجعه فى ليلة واحدة بلا عجز ولا تعب . وليس عروجه برسوله فى ليلة واحدة بأثقل على قدرة الله وأغرب فيها من خلقة الانسان وما أودع فيه . وليس أعجب من خلقه لعينه الباصرة التى يرى بها على حقارتها هذه المرات من الأجرام السماوية ، وبيننا وبينها مئات الملايين من الأميال فى أقل من ثانية . وليس أعجب من أن خلق لنا من هذه النطفة البيضاء السائلة ، ومن الخبز الذى نأكله ، هذه العقول الجبارة ، والعلوم التى لا تنتهى ، والحواس العجيبة . ولكن الشيء إذا كثرت رؤيته نزعته منه العبرة ولو فرضنا أن الانسان لم تخلق له حاسة البصر ، فحدث عنها وعن بلوغها المسافات الطويلة ، وإدراكها فى أقل من ثانية ما لا ندركه آلاف الأعوام سيراً لعد هذا ضرباً من الخيال والوهم ، ولعمد أغرب من المعراج وقصته . ولو أن إنساناً خلق طوراً واحداً كامل الخلق كما خلق جدنا آدم ، فرأى الناس الرجال البالغين السكاملين ، والنساء البارعات

جمالاً ، اللاتي لا تشبع منها العين والبصر ، وحدث عن مبدإ هؤلاء ، وعن أصلهم ، وأنهم كانوا يوماً من الدهر نقطة من هذا الماء الدافق الأبيض المستقذر ، أو تراباً ، لما أمكن أن يصدق ذلك . ولو قيل له هذا ، وقيل له : إن واحداً من هؤلاء الرجال الذين تراهم عرج به ليلة إلى هذه الشمس ، أو إلى أرفع منها ، ثم نزل إلى الأرض في ليلة لعد هذا أقرب من الأول ، ولأمن بهذا العروج قبل أن يؤمن بأصل الانسان وبدايته إن أمكن أن يؤمن . ولو أن أعقل العقلاء لم يز الشمس ولا القمر ولا الاجرام العلوية ، ولم يبرز إلى السماء ، ففيل له : إن فوق هذا البيت الذي أنت فيه سرجاً عظيمة ، أكبر من الأرض أكثر من مليون مرة ، معلقة في الهواء ، لا يحملها شيء ولا تقع لعد هذا الكلام من الخرافات ، ولعد هذا أغرب من المعراج في القدرة والندرة ، ولـكننا الآن نرى الشمس والقمر وسائر الأفلاك فوقنا في الهواء ، ولا غرابة ولا عبرة . ولو حدث عن الجاذبية التي يعتمد عليها المعطلة في تعطيلهم ، وحاولنا أن يؤمن بها كما هي لحاولنا شططا .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه القادر على أن هذا الذي أنكروه لأنهم حسبه بعيداً محالاً ، هم يشاهدون كل يوم مثله وأعجب . فان بين الأرض والشمس مسافة ثلاثة وتسعين مليون ميل ، وهذه أنوارها تصل إلينا في أقل من لحظة . وإن النور يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر

وهذا النور الذى يقطع المسافات فى هذه السرعة ، قد حققوا أخيراً أنه مادة أى جوهر لا عرض . فاذا كان واهب الوجود وهب النور وهو جاد هذه السرعة والقوة ، فكيف يعجز أو ييخل أن يعطيها أفضل خلقه ؟ ! وإذا كان أعطاها هذا النور الحسي الذى يهذى الأبصار ، فكيف لا يعطيها ذلك النور ﷺ الذى يهذى البصائر ؟ ! وشتان ما بين النورين على أن ما أحدث التلغراف والراديو من نقل الأصوات والكلام يقرب لهؤلاء المعراج ، ويقطع عليهم التعلل بالمسافات والأبعاد

وأخيراً فأغلب شبهات المعراج هي شبهات فى الحقيقة على القدرة وهى لا تروج إلا عند من ينكر الإله القادر الفعال لما يشاء . وقد أصبح الايمان اليوم بالقادر الفعال من الضرورات الأولية لا ينازع فى ذلك إلا قوم يعشقون الإلحاد والكفر لذاتهما لأن أنفسهم تشتهيه ، لا لأن لديهم عليه براهين ومحاولتنا أن يؤمن هذا الصنف بالمعراج والاسراء وبالاله أيضاً عبث

ولو أن إنساناً - وإن خلق غيباً - فكر فى أحقر عضو فيه ، وفكر فيما أودع من الحكم والاحكام والاسرار فيه ، وكيف جاء وفق المصلحة والمنفعة والحكمة ، وكيف كان فى هذا المكان من البدن ، وكيف كان بهذا القدر وهذا الشكل وبهذا اللون والسمعة . وفكر بعد فى أصله ومادته التى برى منها ، وكيف كان فى تنقله من طور إلى طور ، ومن خلق إلى خلق ، وكيف كان ينمو باتزان وتناسب فى جميع أعضائه ،

وجميع جوانبه ، وعلى قدر موزون . ثم فكر فيما خلق حوله ليحفظه من التلف والضياع والأضرار المحدقة بالإنسان ، وكيف بقى كذلك مرعياً محفوظاً يؤدي مهمته ووظيفته أحسن تأدية . وفكر بعد ذلك في الشأن الذى خلق لأجله ، وفى الغاية منه . ثم فكر لو أنه كان بعكس ذلك وبالعكس ما كان وكيف يكون حينئذ : أقول لو أن إنساناً ، وإن كبر نصيبه من الغباوة والبلادة ، فكر فى ذلك سواء أ كان جاهلاً أم عالماً ، وسواء أ كان فيلسوفاً أم أمياً ، لكفاه ذلك دليلاً على القادر المختار الذى لا يؤوده شيء ، ولا يغلبه شيء ، ولرأى ذلك أغرب من جميع الخوارق من معراج وإسراء وغير ذلك . ولكن كما قلنا إذا كثرت رؤية شيء نرعت منه العبرة . على أن ما أحدث فى هذا العصر من المخترعات والمبتدعات كاد يمحو حروف المستحيل ومتصرفاته من قائمة الموجودات . ولو أن ما اخترع فى هذا العصر من البدع الصناعية الأوربية جاء فى القرآن أو غيره من كتب الله لقال الجاهلون إن هذا مستحيل ، ولكذبوه أعظم من تكذيبهم للمعراج والإسراء ، ولبدأوا بانكاره وجحوده .

ونحن كما قلنا لا نرى ما يراه بعض الناس فى الرد على الجاحدين بأن نجتهد فى أن نقيم لهم الدليل على أن الأمر الذى خالفونا فيه جار على نواميس الطبيعة وعاداتها ليس خارقاً ولا معجزاً . فهذا رأى كما قلنا عقيم الانتاج لا ينصر إيماناً ، ولا يكسر كفراناً ، والطريقة الجيدة فى ذلك أن نقيم لهم الدليل قبل كل شيء على الإله الذى يقول للشيء .

كن فيكون ، الذى لا يغالب ولا يمانع . فاذا ما امة فوا به لم يجدوا مانعاً من أن يؤمنوا بالدين ، وما جاء به الدين من أمور تحار فيها العقول الجبارة . وإلا فأننا إذا ذهبنا وأقنناهم الدليل على أن هذا الأمر الذى جاء به الدين ، وجاء به الرسول ليس معجزاً بل هو أمر معتاد قد يكون لغير الأنبياء ، فهل يكون ذلك برهاناً عندهم على الايمان وعلى الرسالة ؟ اللهم لا . وبهذا فلتقاوم كل شبهة تعترضك أيها القارئ دون الايمان والاطمئنان بالدين ، وما أخبر به الدين . وتعلم أن الأديان كلها مبنية على الخوارق والايمان بالخوارق ، فهي كلها تحدث أن الانسان - أشرف المخلوقات - كان سلسلة خوارق وعجائب . فأوله خلقة آدم وحواء ، وهو خارق الناموس العام . وآخره بعث الانسان بعد الموت ، ثم خلوده فى الجنة أو النار وبقاؤه كذلك لا يموت ولا يحيى . وهذا كله خارق ونادر . فلا إيمان إلا بالايمان بالخوارق ، وبأن الله يفعل ما يشاء ويختار . ومن العجب أن يكون للملوك ، ومن دون الملوك ، أحكام استثنائية وخوارق فى أفعالهم ، ولا يكون ذلك للملك الملوك الله رب العالمين .

مخاطبة الاموات

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ أمر بأربعة وعشرين صنديداً من صناديد قريش يوم بدر ، فقفوا فى طوى من أطواء بدر وقام على الطوى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ما يسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فأننا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم

ربكم حقاً » . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ماتكم من أجساد لأرواح لها . فقال رسول الله « والذي نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول »

يستدل فريق نشأ فى حجر البدعة والخرافة بهذه القصة على بدعهم التى ابتدعوها ، وعلى لجوئهم إلى الموتى رغباً ورهباً ، وعلى سائر ما يأتونه عند القبور من محدثات يذهبونها الذوق والعقل والدين . ويقولون : إذا كان رسول الله ﷺ دعا الموتى الكافرين فكيف لاندعو الموتى المؤمنين ؟ ! وإذا كانوا يسمعون فمن يعارض فى دعاء من يسمعون ؟ ! وقد يرشحون قولهم هذا باحضار الأرواح ومخاطبتها . وعلى ذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من هذه الخرافات لدى الأولياء وغير الأولياء من أبواب وجدر ، حتى ضج العقلاء والحرىصون على الدين ، وعلى عقول الأمة وسمعتها من ذلك . وفعلوا ما فعلوا من أوهام سوداء سودت وجه الدين والمتدينين ، وجعلت للأعداء مقالا ومقدحاً فى دين التوحيد ودين العقل والذوق . ولهذا البدع — كما يعلم المفكرون — أثر فى إلحاد من يلحدون من شباب الإسلام ، وخروج من يخرجون على الإسلام من أبناء الإسلام ، أنفة منهم وإباء أن يدينوا ديناً يدعو إلى جعل الموتى المفزع والملتجأ ، وهم لا بصيرة لهم بالدين ، ولا يعرفون الدين إلا أنه ما عثله هؤلاء الطائفون بالأضرحة من العامة وأشباههم . ونحن نقول : نعلم بالضرورة والاستقراء التام والإجماع السلبى أن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم من أئمة الدين ما كانوا

يدعون الموتى ، ولا يسألونهم ، ولا يرغبون فيهم ، ولا يفزعون إليهم إذا حزنهم أمر . ولا كان أحد منهم يلجأ إلى رسول الله ﷺ ولا إلى غير رسول الله ليكشف ما به من بلاء ، أو ليزيد ما به من نعماء ، أو ليلهمه رشداً ، أو ليدفع عنه كبداً . ولا كان أحد منهم يفعل ما يفعله هؤلاء لدى المقامات من الطواف ، والالتزام ، والتقبيل ، والخضوع ، والخشوع ، والتوسل ، والضراعة ، والمسكنة . بل نعلم أن القرآن والسنة جاءا لإبطال ذلك كله ، ومحوه من الوجود ، وإحاقه بالجاهلية المحطمة المباداة ، كما أنه لا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله عليه السلام ما يحيز ذلك ، أو يحله ، لا إشارة ولا تصريحاً . بل القرآن مملوء من النهي عن ذلك ، والزجر عن فعله ، ولا نشك أنه لو كان دعاء الموتى والتوسل بهم ديناً يرضاه الله ، أو يرضاه رسول الله ﷺ لما أعرض عنه صحابة رسول الله ومن بعدهم من الأئمة ، فيمتهدى إليه المتأخرون المقصرون في كل خير . ومن زعم ذلك فقد اتهم المسامين الأوائل وقدح في علمهم ودينهم .

ولقد يلزمنا العيب والشبهة إذا حاولنا أن نقيم الدلائل على بطلان التوسل العامي الحاضر . وقد نهجو أنفسنا بذلك ، ونكون كمن قام يدلل على أن الشمس أضواً من القمر ، وأن الناتج من ضرب الواحد في خمسة يساوي خمسة . إن حالنا كحال هذا الذي يفعل ذلك حينئذ . ولكن لما فتن الناس بهذا التوسل ، ونشأ عليه الصغير والكبير حسبوه من الدين ومن الإيمان . والاعتياد تأثير فعال في العقيدة .

وإلا فمن ينازع في أن الاستغاثة بالموتى رجاء السعادة والمدد جهل وضلال .
ومن يقول إن دين التوحيد والتنزيه يجوز هذه القاذورات التي تؤتى
في الموالد ، وفي أحضان المقامات ، على حساب الدين وحساب التدين
وأى إنسان رزق ذرة من عقل وإنصاف يقول إن الدين الإسلامى
يجوز لمعتنقيه أن يسألوا الموتى التوظيف والتزويج والشهادات وفك
المغلق من المشكلات ، من دينيات ودنيويات ، كما نشاهد ذلك كله عند
هؤلاء الصالحين رضى الله عنهم ؟ ومن يقول من المسامين إن من
الإسلام أن يقف المسلم الموحد أمام الميت المدفون فى التراب وتحت
الرمال ماداً يديه ، خاشع القلب ، ساكن الأعضاء ، ممتلئاً رغبة ورهبة ،
ممتلئاً خشوعاً وخضوعاً ، قائلاً : (يا فلان مدد) . (يا فلانة مدد) ؟
اللهم إن الدين يبرأ من ذلك كله ويأباه . وإن المسامين يبرءون من
ذلك إلى الله . واحسرة على المسامين ، وواحسرة على الإسلام

إنه لم يبق عاقل من عقلاء المسامين الذين يقام لهم وزن فى العلم
والأمة يبيع هذا التوسل الذى ينتحله طوائف العامة ، أو يبيع هذه
الوثنية الشائنة . وإنما نحمد الله أن أخذت تمقهقر هذه الخرافة فى الأيام
الأخيرة ، ولم يبق لها من ولى ولا نصير غير جماعات لا يؤبه لهم ،
والحمد لله على ذلك .

إننا قد ذكرنا فى سائر كتبنا البراهين العقلية والنقلية على
بطلان هذا التوسل ، وذكرنا هنالك من حجج القرآن والحديث

والإجماع والقياس ما يقنع بعضه المنصف بأن هذا التوسل ليس من الدين في شيء

والذي نقوله الآن هو أن حديث خطاب رسول الله لكفار قریش الذين رموا في الطوى لا يدل على أكثر من وجود العالم الروحاني ، وأن لهذا العالم استقلالاً عن العالم الجسماني ، وأنه قد يدرك الخطاب والنداء . ومستحضرو الأرواح الآن يقررون هذا . ولكن لا يدل لهؤلاء المتوسلين وجود العالم الروحاني وسماعه بعض الأوقات على أنه يجوز الاستعانة به ، والدعاء له . وذلك أنه لا يلزم وجود عالم الأرواح أن يكون سامعاً من ناداه ، ولا يلزم إذا سمع أن يكون قادراً على ما يطلب منه ، ولا يلزم إذا قدر عليه أن يكون مأذوناً له بإعطائه من طلبه ، ومأذوناً لنا بأن نطلبه ، ولا يلزم من ذلك كله أن يكون ذلك مباحاً جائزاً ، ولا يلزم بعد ذلك كله ألا يكون منع لأنه يترتب عليه مفاسد دينية أو دنيوية ، أو يترتب عليه أن ينحل الأموات فوق ما هم له أهل ، كما هو الواقع المشهود . فالتنا نرى المتوسلين في عصرنا يسألون الأموات أموراً لا يقدرون عليها وهم أحياء ، ولا يقدر عليها إلا الله سبحانه ، ويقدمونهم ويعظمونهم ويهابونهم ويرجونهم . كل ذلك بآبلغ مما يكون منهم لله وهم بين يديه في الصلاة والمناجاة . ولا شك أن هذا خالص العبادة وإبها ، لا يجوز صرفه لمخلوق سواء أكان حياً أم ميتاً ، وسواء أكان حاضراً أم غائباً . ويدل على ما نقول أنه لا تجوز لنا دعوة الملائكة ولا دعوة الجن مطلقاً . والملائكة والجن أحياء ، وهم أقدر من

الانسان ومن روح الانسان . وما دعاهم أحد من المسامين ولا العاقلين . ولم يفهم الصحابة الذين سمعوا رسول الله صلى عليه وسلم ينادي كفار قريش وهم أموات أن ذلك دليل على التوسل بالموتى . ولهذا لم يتوسل أحد منهم برسول الله بعد موته ، ولم يتوسل أحد من الأئمة الذين رووا هذه الأحاديث وحذقوها بمخلوق ميت . وهذا اجماع سبى لا يدفع ولو كان الدعاء يلزم التوسل لجاز التوسل بالأموات الكافرين استدلالاً بمناداة رسول الله ﷺ لهؤلاء الكافرين الذين رموافى الطوى . ومن يجوز هذا من العاقلين . ومستحضرو الأرواح - وهؤلاء يحتاجون بما يقولون - يقولون إن الأرواح مقيدة بأحكام لا يمكن أن تخرج عنها ، وإنها لا يؤذن لها بأن تفعل كل ما تقدر عليه ، وأن تجاوب كل من سألها ، وإنه قد يكون من العدوان عليها ، والايذاء لها ، أن تنادى وأن تسأل لأنها مشغولة بما هنالك عما هنا

ويدل على أن دعوة الأرواح لا تجوز - ولو كانت قادرة وفاعلة - أن مستحضري الأرواح يقولون إنهم لا يقدررون على أن يستحضروا الأرواح القوية العظيمة فلا يقدررون على استحضار أرواح الأنبياء والملائكة . فلماذا هذا ؟ اويقولون : إنه ليس كل أحد صالحاً لدعوة الأرواح واستحضارها .

والذى نراه نحن أن هذا الذى يكلم دعاة الأرواح غالباً هم شياطين مضلون لا أرواح من أرادوا مخاطبتهم . وهذا بين لمن تدبر ، وهو يفيدنا فائدتين : إحداهما وجود عالم الأرواح الشريرة وهم الشياطين

تصديقاً للأديان ، وتكذيباً للجاحدين الملحدين . وثانى الفائدتين
أن نعلم أن دعوة الأرواح واستحضارها ضلال . ولهذا تجاوب الشياطين ،
والشياطين مضلون لا يريدون إلا الإفساد

ثم ألا يكفي هؤلاء علماء بطلان دعواهم ودعائهم أنهم مهما دعوا
والحوافى الدعاء لا يجابوا ولا يُسمعوا؟! (ولا تدع من دون الله ما
لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فانك إذا لمن الظالمين) ، (ومن أضل
ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن
دعائهم غافلون) . أو ألا يكفيهم أيضاً دليلاً على بطلان توسلهم ما لازمهم
من الضلالات والمنكرات باعتراف الجميع . ولا ينتج الشر إلا الشر
على أن الدعوى التى ادعوها فى جانب ، والدليل الذى جعلوه
برهاناً على دعواهم فى جانب آخر . وذلك أن دعواهم هى أن سؤال
الموتى ، ورجاءهم ، والفرع إليهم ، وما مع ذلك من البدع ، دين وحق
والذى استدلوا به على هذه الدعوى ليس فيه غير أنهم قد يسمعون
بعض الأحياء ، وأن أرواحهم موجودة . بل فى الحديث نفسه
ما يرد على الدعوى . وذلك أنه يقول : إنهم ليسمعون ، ولكنهم
لا يجيبون . ومن لا يجيب كيف يدعى لو يتدبرون ؟!

والكلمة الفاصلة فى هذا الحديث : أن الله تعالى جعل فى أولئك
الكفار القدرة على السماع بأن رد إليهم أرواحهم فى تلك الساعة
ليسمعوا نداء رسول الله توبيخاً وتحسيراً ونقمة . والله أن يخرق
لرسوله ما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا مانع لما أراد . وقد روى

البخارى فى صحيحه عن قتادة وهو إمام من أئمة التابعين الكبار
« أن الله تعالى أحيام له فى تلك الساعة توييخاً لهم وإيلاً ما وحسرة .
وقد كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كثيراً من الأحجار
والحيوانات فتسمع منه وتجاوبه ، فهل يدل هذا الخطاب والسمع على
أن تلك تسمع دائماً ، وعلى أنه يجوز التوسل بها واستغاثتها ؟ ! ولوضوح
هذا عند الصحابة رضوان الله عليهم ، أنكرت عائشة رضى الله عنها
حديث مخاطبة الأموات ، ووهمت راويه وهو الثقة الثبت ، واستدللت
بقوله تعالى : (فانك لا تسمع الموتى) رواه عنها البخارى . وما أنكر
الصحابة ولا المسلمون هذا الاستدلال عليها ولا هذه الحجة . وقل لى
بربك لو كان دعاء الموتى فى ذلك العصر معروفاً مألوفاً ، فهل يمكن
أن يخفى على عائشة رضى الله عنها ، أو يخفى على الصحابة والتابعين أن
يردوا عليها بذلك ؟ ! الحق إن الأمر واضح

الفتن من قبل المشرق

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قام إلى جنب المنبر فقال : « الفتنة
ها هنا . الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان » أو قال : « قرن
الشمس » وعنه أيضاً أنه سمع النبي وهو مستقبل المشرق يقول : « ألا
إن الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان » رواها البخارى ومسلم .
وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم بارك لنا فى شأمننا . اللهم
بارك لنا فى يمننا » قالوا : يا رسول الله وفى نجدنا . قال : « اللهم بارك لنا

في شأننا . اللهم بارك لنا في يمننا » قالوا : وفي نجدنا يا رسول الله .
 فأظنه . قال في الثالثة : « هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان »
 رواه البخارى . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال : يا أهل
 العراق ما أسألكم عن الصغيرة وما أركبكم للكبيرة . سمعت أبي عبد الله
 ابن عمر يقول سمعت رسول الله يقول : « إن الفتنة تجيء من ها هنا »
 وأوماً بيده نحو المشرق « حيث يطلع قرن الشيطان » وأنتم يضرب
 بعضكم رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ ،
 فقال الله عز وجل له : (وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً)
 يعتمد بعض ذوى الأغراض والأهواء ممن قل نصيبهم من
 المعرفة والانصاف على هذه الأخبار ، فيقدح في الدعوة السلفية
 التى يقوم على إنعائها وإعلائها اليوم ، ويدأب في نشرها وتوسيع نطاقها
 عاھل الجزيرة العربية مهولہ الملک عبد العزیز آل سعود

وقد حسب هؤلاء ، وأظهروا للناس أن هذه الأخبار تشير بالفتن
 والزلازل إلى هذه الدعوة التى تقول : يجب أن يرجع الخلق كافة إلى
 الخالق وحده ، وألا يعتمدوا على سواه ، لا على نبى ولا من دونه ،
 ولا يأخذوا إلا بالأسباب العادية المشروعة ، وبعد ذلك يرجعون إلى
 الله ، فلا يدعون أحداً . والتي تقول : إنه ليس وراء الله للمرء مذهب .
 وإنه يلزم المسلمين عمومًا أن يكونوا كما كان رسول الله ، وكما كان صحابته
 ومن تبعهم باحسان بلا زيادة ولا نقصان ، ولا اختراع ولا ابتداع .
 وإنه يجب أن يقف المسلمون حيث وقف القرآن ، وحيث وقفت

السنة ، اعتقاداً وعملاً ، بلا تجاوز ولا مغالاة ولا إهمال . وإنه لا بد أن يقيم المسلمون حدود الاسلام وأحكامه وعقوباته وإن غضب الشرق والغرب ، وإن غضب الناس أجمعون ، أو ترك الناس ذلك أجمعون . وإن الاسلام لا يمكن أن يسترجع سالف مجده ، وأن ينهض النهوض المرموق إلا إذا عمل المسلمون بكتابهم وبسنة رسولهم .

نعم حسب هؤلاء وأوهموا بعض الأغرار أن هذه الأحاديث النبوية تشير إلى ذم هذه الطائفة وإلى ذم إصلاحها الذي جاءت به ، والذي شكرها العاقلون عليه كافة وترنموا بمدحه وإطرائه في شرقها وغربها .

ونحن هنا نذكر ما ذكره العلماء شراح الأحاديث في هذه الأحاديث ، وما فسروها به ، ليبصر الحق مريدوه . وما علينا بعد ذلك أن يعاند معاند ، أو يكابر مكابر ، أو يغضب غاضب . ولنتقصر على ما ذكره أشهر شراح الحديث في شرح أشهر كتاب حديثي وأصححه وهو « فتح الباري شرح صحيح البخاري » للحافظ ابن حجر العسقلاني قاضي قضاة مصر في عصره ، وهو منقطع النظير في فنون الحديث وروايته في زمنه . ولم يشرح البخاري فيما نعلم مثله . ولم يأت بعده حسب معرفتنا من يجاريه أو يدانيه في علم الرواية . قال في الجزء السادس صفحة ٢٢٠ بعد قوله رأس الكفر نحو المشرق : « وفي ذلك إشارة إلى شدة كفر الجوس . لأن مملكة الفرس ، ومن أطاعهم من العرب ، كانت من جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة ، وكانوا في غاية القوة

والتكبر والتجبر ، حتى مزق ملابسهم كتاب النبي كما سيأتي في موضعه . واستمرت الفتن من قبل المشرق كما سيأتي بيانه واضحاً في الفتن . ثم قال في كتاب الفتن صفحة ١٠ الجزء الثالث عشر بعد حديث إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر » وإنما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها ، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك ، فالقتال بالجل وبصفين كان بسبب قتل عثمان ، والقتال بالنهر وان كان بسبب التحكيم بصفين ، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولد منه . ثم إن قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على أمرائه ثم عليه بتوليته لهم . وأول ما نشأ ذلك من العراق ، وهي من جهة المشرق فلا منافاة بين حديث الباب وبين الحديث الآتي إن الفتن من قبل المشرق . ثم قال في الجزء الثالث عشر صفحة ٣٦ « كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر فأخبر ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، فكان كما أخبر . وأول الفتن كان من قبل المشرق ، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به . وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة . وقال الخطابي : نجد من جهة المشرق ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها ، وهي مشرق أهل المدينة . وأصل النجد ما ارتفع من الأرض وهي خلاف الغور فانه ما انخفض منها وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة . انتهى . وعرف بهذا وهاء ما قاله الداودي : إن نجداً من ناحية العراق ، فانه توهم أن نجداً موضع مخصوص ، وليس كذلك ، بل كل

شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يسمى المرتفع نجداً والمنخفض غوراً » انتهى كلام ابن حجر

ونحن نقول بعد ذلك : إننا إذا طالعنا الخرطة وجدنا العراق شرقاً عن المدينة شمالاً ووجدنا بلاد العجم شرقاً شمالاً عن المدينة أيضاً . وإذا ما كلفنا أنفسنا ساعة من الزمن وقرأنا شيئاً من تاريخ الفتن التي وقعت في صدر الاسلام زمن الخليفين عثمان وعلي وزمن من بعدهم من الخلفاء والأمراء وجدنا جميع الفتن في غير نجد ، ليس لنجد منها شيء . وكلها ولد وفرخ في العراق والشام ومصر وبلاد فارس . وليس هنالك فتنة أعظم من قتل عثمان وعلي وعمر رضي الله عنهم ، وأعظم من القتال بين الامام علي ومعاوية ، وبين علي والخوارج ، وبين علي وعائشة . وليس لنجد من ذلك شيء ولا غمست يدها في قليل ولا كثير من دمها . وكذلك إذا ما تعقبنا التاريخ من ذلك العصر إلى هذا العصر لم نجد في نجد من الفتن والزلازل ما وجدناه في مصر والعراق والشام وسائر البلاد ولا يمكن أن يكابر في ذلك مكابر .

لنفرض أن الدعوة السلفية الموجودة الآن في نجد هي ضلال وباطل . وأعاذها الله من ذلك . فهل يمكن أن تكون أحق باسم الفتن والزلازل من الإلحاد والتنصير والفسوق والخلاعة الموجودة في سائر البلاد الاسلامية اليوم ؟ ! فهل يمكن تنزيل الأحاديث المذكورة على نجد دون هذه البلاد التي انغمست في هذه الرذائل من قدميها إلى رأسها ؟ وهل يقول ذلك إلا من لم يرزق شيئاً من الانصاف والعدل

ولفظ الفتنة عند ما يطلق يعبر عن الحروب والقتال ونحو ذلك ، ولا يعبر عن الآراء والعقائد الفاسدة . فلو سلمنا أن هذه الأحاديث تعنى نجداً وتعنى أنها موقع للفتن والحروب ، ولن نسلم ذلك ، لم يدل على أن تلك العقيدة باطلة وضلالة ، وإنما يدل على أنه يحدث فيها أحداث وحروب داخلية ، وهذا لا شك فيه . ونحن لا نخالف أنه قد وجد في نجد حروب بين المسلمين لا يرضاها الله ولا يرضاها دينه ولا يرضاها النجديون أنفسهم ، مثل ما وقع من الدويش وإخوانه حتى قضى جلالة الملك عبد العزيز على ذلك وجذ جذورهم واستأصل شأفتهم . وأى بلاد خلقها الله تسلم من ذلك . ويبين ذلك أنه روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أشرف على أطم من أطام المدينة فقال « هل ترون ما أرى » قالوا لا . قال « فاني لأرى الفتنة تقع خلال بيوتكم كوقع القطر » فان كان وجود الفتن في بلد دليلاً على فساد عقيدة ذلك البلد دل هذا الحديث على فساد عقيدة أهل المدينة المنورة

وأيضاً لا شك أنه ما من بلد إلا ويوجد فيها فتن وزلازل وشياطين . فهل يدل ذلك على فساد عقائد الجميع . وقد حدث في سائر البلاد من الأمور القبيحة والعقائد المغضوب عليها ما لم يوجد في نجد . فهل وجد في نجد ما وجد في غيرها من البلاد ، وفيها من ادعى الربوبية وقال لأهلها (أنا ربكم الأعلى) فقالوا له سمعاً وطاعة وكرامة . وأيضاً إن كانت هذه الأخبار دليلاً على فساد العقيدة بالجملة

لم تدل على أن ذلك الفساد ، وتلك العقيدة الفاسدة ، لن تزول ولن تفارق أهلها ، وإنما تدل على وجودها بالجملة . ولا ننازع في هذا . فقد كان أهل نجد مشركين قبل رسول الله عليه السلام كما كان غيرهم . وقد كفر طائفة منهم بعد موته عليه السلام واتبعوا مسيمة الكذاب . ويبين ذلك أن العقيدة التي ينقم منها هؤلاء هي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وهذه الدعوة ما وجدت في نجد إلا منذ قرنين تقريباً . وأما قبل ذلك فأهل نجد كانوا كغيرهم يتولون ما تولى سائر الناس ، وهم ذلك الوقت وفي تلك الحال عند هؤلاء مهتدون راشدون ليس عندهم فتن ولا زلازل بل هم موحدون حقاً وراشدون حقاً . فهذه الأحاديث ، بعد كل تنازل وتواضع ، لا تدل إلا على أنه يضل منهم فريق . ولا ننازع في هذا اجمالاً . وعلى هؤلاء أن يبرهنوا أن الدعوة الموجودة الآن في نجد هي ضلال وفتنة ، وأين هم من ذلك ، وأن يبرهنوا أنه ليس ما خالفها من البدع والخرافات ضلالاً وخرافة .

وبعد . فقد قال في القاموس « النجد ما أشرف من الأرض . الجمع أنجد وأنجاد ونجد ونجد . والطريق الواضح المرتفع وما خالف الغور أى تهامة ، وتضم جيمه ، مذكر . أعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق »

ومما يلحق بهذا ما يستدل به بعض الجهلة وهو بعض ما يذكره بعض أهل السيرة - إن صححت الرواية - أن المشركين لما اجتمعوا في دار الندوة للتآمر في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي القضاء عليه

ليخلصوا من دعوته ، جاءهم الشيطان في هيئة شيخ وقور تقي ، وادعى لهم أنه من أهل نجد جاء ليبدى رأيه في هذه المشكلة التي شغلت رؤوس قریش ، وهى مشكلة محمد عليه السلام ودعوته ، فرحبوا به وأدخلوه معهم ، وهم لا يدخلون في مثل هذه الحال طبعاً إلا من يظنونه من ذوى الدهاء والرأى والحنكة ، فأخذوا يديرون الآراء ، والشيخ النجدى - كما زعم - يرجعها عليهم رأياً رأياً مبدئاً لهم ضعفها وسخفها ، إلى أن أقر لهم الرأى الأخير وجوده ، وهو أن يأتوا من كل أسرة من أسر قریش الشريفة بفتى مارد جرىء ويعطوه سيفاً صارماً ، ثم يضربوا رسول الله عليه السلام بسيفهم المرفهة ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في الأسر فيهدر . فتفرقوا على ذلك مصممين عليه

قال هؤلاء الجهالة : إن تمثل الشيطان بصورة شيخ نجدى دليل على فساد عقيدة النجديين . وهذا جهل فاضح . والقصة لا تدل على على أكثر من أن قریشاً ، وهم من نعرف أهل النخوة والادلال والاعجاب بالرأى ، وهم مضرب المثل في الذكاء وصحة الفكرة وتوقد القريحة وسلامة الرأى ، يسامون لرجال نجد الزعامة السياسية ، والامامة الدينية ، ويسامون تفوقهم عليهم بالآراء والدهاء . ولهذا أدخلوا الشيطان حين ما انتسب إلى نجد وادعى أنه نجدى ، وأشركوه في ذلك الحفل الذى جمع زعماء قریش ورؤوس ساستها ، وجعلوا قوله هو القول ، ورأيه هو الرأى . ويدل أيضاً على أن الشيطان يعرف للنجديين ذلك ، ويعرف أن قریشاً تعرفه لهم ، وهذا غاية التعظيم والمدح للنجديين

خلاف ما ظن هؤلاء . ولو كان يعلم أنه إذا انتسب إلى غير نجد أدخلوه وقبلوه لما وجد مانعاً من أن ينتسب ، ولعله لو فعل ذلك لطرده .
والشيطان قد يتصور في صورة ويقول : أنا رسول الله . ويتصور في صور العلماء والعباد المعررفين بالامامة والدين . يفعل ذلك للاضلال والاغواء . وقد يحجى بعض الناس ويقول له : أنا الله ، وقد أحللت لك كذا وكذا مما حرمت على غيرك ، ليفسد على ذلك لانسان دينه وعقله .
فما في انتساب الشيطان إلى بعض الناس أو بعض البلاد نقص في أولئك الناس ولا تلك البلاد ، والعكس أقرب . فانه غالباً يتصور بصور الصالحين ، أو من يظن أنهم صالحون ، ليستطيع التغيرير والتضليل .
وقد رووا أنه جاء إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الصالح المشهور وقال له : أنا رب العزة يا عبد القادر . وقد أحللت لك كذا وكذا مما حرمته على غيرك . فقال له الشيخ عبد القادر : إخساً . أنت الشيطان الرجيم فقال الشيطان : نجوت مني يا عبد القادر بفقهك ، ولقد أضللت بهذا خلقاً كثيراً من العباد والزهاد . والله أعلم

الرجاء تصحيح « لك » بـ « ذلك » في الصفحة الأولى السطر الخامس

كتاب

السنة والابتدعات

تأليف

حضرة الاستاذ العالم العامل النشيط الباحث

الشيخ محمد احمد عبد السلام

رئيس الجمعية السلفية في الحوامدية

هو كتاب قيم كبير دافع عن السنة باخلاص وقوة ، وحارب البدعة ببرهان وحنة ، ذكر فيه بدءاً وخرافات شاعت ما بين المسلمين واعتقدوها ديناً فزيفها كما ذكر أحاديث كثيرة موضوعة على صاحب الرسالة عليه السلام . وقد حسبها كثيرون ممن لا خبرة لهم بعلم الحديث صحيحة ، فبين حالها بعلم وتحقيق . وفي الكتاب نصيحة مطولة لسائر العلماء والمسلمين . ومما يزين هذا الأستاذ ومؤلفاته ما امتاز به على كثير من علماء اليوم . وهو الاخلاص والعمل بما يعلم ، وبذل القليل والكثير من المال والوقت في نشر العلم الصحيح وإحياء السنة الدائرة تأليفاً وطبعاً . ولهذا يجد القارئ لمؤلفاته تأثيراً غريباً لا يجده في غيرها ، وهو تأثير الاخلاص والعمل . فجزى الله حضرة الأستاذ الشيخ احمد عن السنة وأهلها خير الجزاء . والكتاب يطلب من مكتبة المنار وغيرها من المكاتب الشهيرة . ولا تنس أن تقرأ سائر مؤلفات هذا الأستاذ فإنها تنفعك كثيراً . وتجد فيها من الفوائد ما لا تجدها في كثير مما تقرأ